ابن تيميه

الرسالة القبرصية

الرسالة القبرصية

خطاب لسرجواس ملك قبرص

تأليف

شيخ الإسلام ، أبى العباس

أحمد بن تيمية

رحمه الله تعالى

٦٦١ - ٧٢٨

الطبعة الثانية

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

الناشر

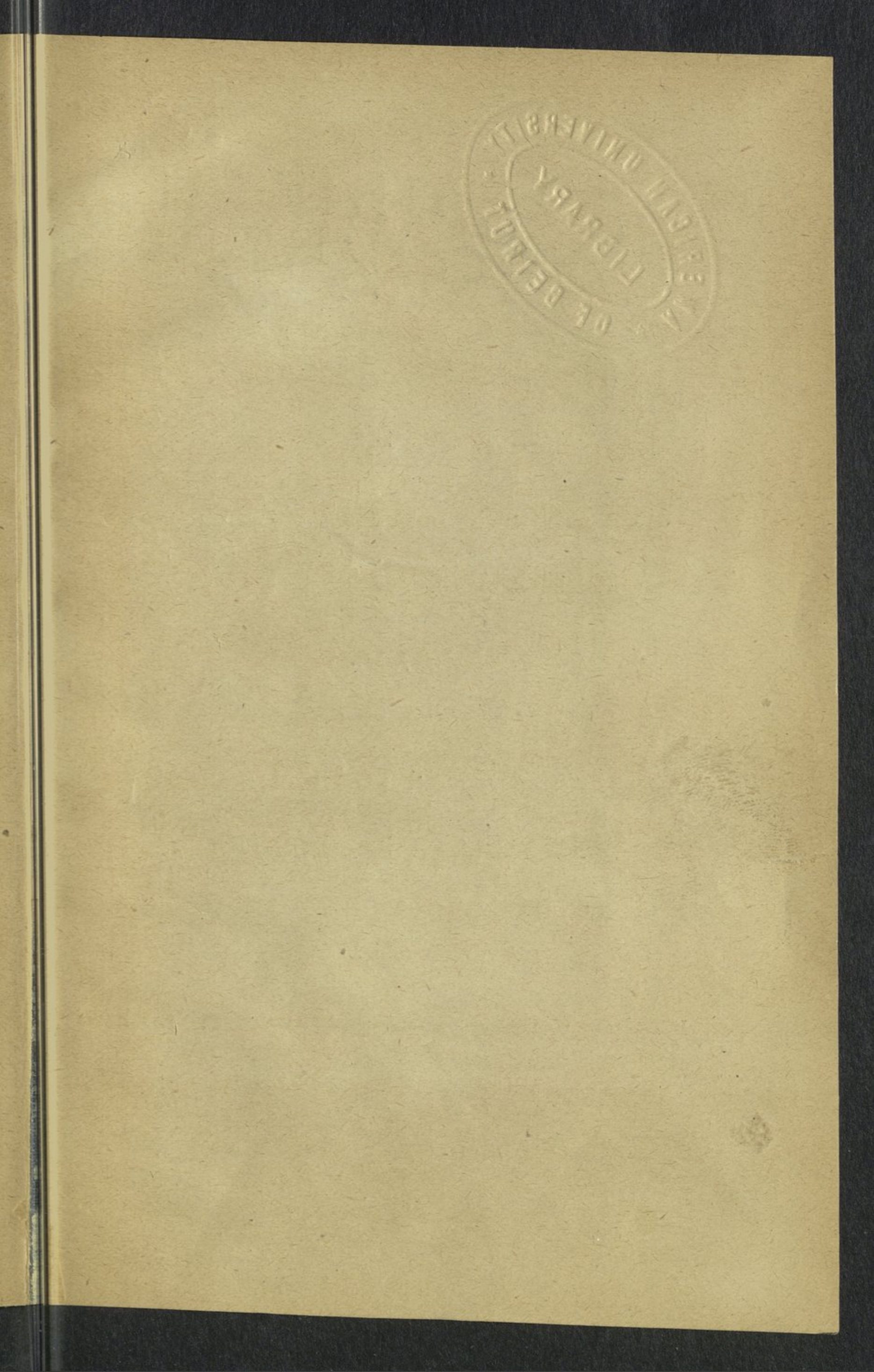
مكتبة أنصار السنة المحمدية

لصاحبها

محمود غانم غيث

١٠ الدمالشه عابدين مصر

مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب بشارع خيرت بمصر



بسم الله الرحمن الرحيم

«من أحمد بن تيمية إلى سرجواس عظيم أهل ملته ، ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين ، وعظماء القسيسين ، والرهبان ، والأمراء ، والكتاب ، وأتباعهم : سلام على من اتبع الهدى . »

أما بعد : فانا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو إله إبراهيم وآل عمران ، ونسأله أن يصلى على عباده المصطفين وأنبيائه المرسلين ، ويخص بصلاته وسلامه أولى العزم الذين هم سادة الخلق وقادة الأمم ، الذين خصوا بأخذ الميثاق وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد كما سماهم الله تعالى فى كتابه فقال عز وجل : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) وقال تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما)

ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين ، وخطيبهم إذا وفدوا على ربهم ، وإمامهم إذا اجتمعوا ، شفيع الخلائق يوم القيامة ، نبي الرحمة ونبي الملحمة ، الجامع محاسن الأنبياء ، الذى بشر به عبد الله وروحه وكلمته التى ألقاها إلى الصديقة الطاهرة البتول التى لم يمسها بشر قط مريم ابنة عمران ذلك مسيح الهدى عيسى بن مريم الوجيه فى الدنيا والآخرة المقرب عند الله المنعوت بنعت الجمال والرحمة لما اتجر بنو إسرائيل فيما بعث به موسى من نعت الجلال والشدة ، وبعث الخاتم الجامع بنعت الكمال المشتمل على الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين ، والمحتوى على محاسن الشرائع والمناهج التى كانت قبله ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين ، وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة .

أما بعد : فان الله خلق الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم آثار مشيئته وحكمته ورحمته ، وجعل المقصود الذى خلقوا له فيما أمرهم به هو عبادته . وأصل ذلك هو معرفته ومحبته ، فمن هداه الله صراطه المستقيم آتاه رحمة وعلماً ومعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ورزقه الإنابة إليه والوجل لذكره ،

والخشوع له والتأله له ، فحن إليه حنين النسور إلى أوكارها وكلف بحبه كلف الصبي بأمه ، لا يعبد إلا إياه رغبة ورهبة ومحبة ، وأخلص دينه لمن الدنيا والآخرة له ، رب الأولين والآخرين ، مالك يوم الدين ، خالق ما تبصرون وما لا تبصرون ، عالم الغيب والشهادة ، الذى أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . لم يتخذ من دونه أنداداً كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولم يشرك بربه أحدا ، ولم يتخذ من دونه وليا ولا شفيعا ، لا ملكا ولا نبياً ولا صديقاً ، فإن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً . فهنالك اجتباه مولاه واصطفاه وآتاه رشده ، وهداه لما اختلف فيه من الحق باذنه فإنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وذلك أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر عليه السلام حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان بدعة من تلقاء نفوسهم ، لم ينزل الله بها كتابا ، ولا أرسل

بها رسولا ، بشبهات زينها الشيطان من جهة المقاييس الفاسدة ، والفلسفة الحائدة : قوم منهم زعموا أن التماثيل طلاسم الكواكب السماوية ، والدرجات الفلكية ، والأرواح العلوية ، وقوم اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين ، وقوم جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن والشياطين ، وقوم على مذاهب أخر .

وأكثرهم لرؤسائهم مقلدون ، وعن سبيل الهدى ناكبون ، فابعث الله نبيه نوحا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وينهاهم عن عبادة ماسواه وإن زعموا أنهم يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى الله زلفى ويتخذوهم شفعاء ، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلما أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، دعا عليهم فأغرق الله تعالى أهل الأرض بدعوته ، وجاءت الرسل بعده تترى إلى أن عم الأرض دين الصابئة والمشركين ، لما كان النماردة والفراعنة ملوك الأرض شرقا وغربا ، فبعث الله تعالى إمام الحنفاء وأساس الملة الخالصة والكلمة الباقية ابراهيم خليل الرحمن ، فدعا الخلق من الشرك إلى الإخلاص

ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام ، وقال : (وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) وقال لقومه : (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) .

وقال إبراهيم عايه السلام ومن معه لقومهم : (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) فجعل الله الأنبياء والمرسلين من أهل بيته ، وجعل لكل منهم خصائص ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وآتى كلا منهم من الآيات ما آمن على مثله البشر .

فجعل لموسى العصا حية حتى ابتلعت ماصنعت السحرة الفلاسفة من الحبال والعصى ، وكانت شيئاً كثيراً ، وفلق له البحر حتى صار يابساً ، والماء واقفاً حاجزاً بين اثنى عشر طريقاً على عدد الأسباط ، وأرسل معه القمل والضفادع

والدم ، وظلل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم ، وأنزل عليهم صبيحة كل يوم المن والسلوى ، وإذا عطشوا ضرب موسى بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم . وبعث بعده أنبياء من بنى إسرائيل منهم من أحيي الله على يده الموتى ، ومنهم من شفى الله على يده المرضى ، ومنهم من أطلعه على ماشاء من غيبه ، ومنهم من سخر له المخلوقات . ومنهم من بعثه بأنواع المعجزات

وهذا مما اتفق عليه جميع أهل الملل وفى الكتب التى بأيدى اليهود والنصارى والنبوات التى عندهم وأخبار الأنبياء عليهم السلام ، مثل أشعياء وأرمياء ودانيال وحبقوق وداود وسليمان وغيرهم ، وكتاب سفر الملوك وغيره من الكتب مافيه معتبر .

وكانت بنو إسرائيل أمة قاسية عاصية ، تارة يعبدون الأصنام والأوثان ، وتارة يعبدون الله ، وتارة يقتلون النبيين بغير الحق ، وتارة يستحلون محارم الله بأدنى الحيل ، فلعنوا أولا على لسان داود ، وكان من خراب بيت المقدس ماهو معروف عند أهل الملل كلهم

ثم بعث الله المسيح بن مريم رسولا قد خلت من قبله الرسل ، وجعله وأمه آية للناس ، حيث خلقه من غير أب إظهاراً لكمال قدرته ، وشمول كلمته ، حيث قسم النوع الإنسانى الأقسام الأربعة، فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق المسيح بن مريم من أنثى بلا ذكر ، وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والأنثى ، وآتى عبده المسيح من الآيات البينات ماجرت به سنته فأحيي الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وأنبأ الناس بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، ودعا إلى الله وإلى عبادته متبعاً سنة إخوانه المرسلين ، مصدقا لمن قبله ومبشراً بمن يأتى بعده .

وكان بنو إسرائيل قد عتوا وتمردوا ، وكان غالب أمره اللين والرحمة والعفو والصفح ، وجعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، وجعل منهم قسيسين ورهباناً ، فتفرق الناس فى المسيح عليه السلام ومن اتبعه من الحواريين ثلاثة أحزاب : قوم كذبوه وكفروا به وزعموا أنه ابن بغى، ورموا أمه بالفرية ونسبوه إلى يوسف النجار ، وزعموا أن

شريعة التوراة لم ينسخ منها شيء ، وأن الله لم ينسخ ما شرعه بعد ما فعلوه بالأنبياء ، وما كان عليهم من الآصار فى النجاسات والمطاعم . وقوم غلوا فيه وزعموا أنه الله وابن الله وأن اللاهوت تدرع الناسوت وأن رب العالمين نزل وأنزل ابنه ليصلب ويقتل فداء لخطيئة آدم عليه السلام ، وجعلوا الإله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد قد ولد واتخذ ولداً ، وأنه إله حى عليم قدير جوهر واحد ثلاثة أقانيم وأن الواحد منها أقنوم الكلمة وهى العلم هى تدرعت الناسوت البشرى مع العلم بأن أحدهما لا يمكن انفصاله عن الآخرين إلا إذا جعلوه ثلاثة إلهات متباينة وذلك مالا يقولونه .

وتفرقوا فى التثليث والاتحاد تفرقاً وتشتتوا تشتتاً لا يقر به عاقل ولم يجىء به نقل إلا كلمات متشابهات فى الانجيل وما قبله من الكتب قد بينتها كلمات محكمات فى الانجيل وما قبله كلها تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده ودعائه وتضرعه .

ولما كان أصل الدين هو الإيمان بالله ورسله كما قال

خاتم النبيين والمرسلين « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وقال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » كان أمر الدين توحيد الله والإقرار برسله . ولهذا كان الصابئون والمشركون كالبراهمة ونحوهم من منكرى النبوات مشركين بالله فى إقرارهم وعبادتهم وفاسدى الاعتقاد فى رسله .

فأرباب التثليث فى الوحدانية والاتحاد فى الرسالة قد دخل فى أصل دينهم من الفساد ماهو بين بفطرة الله التى فطر الناس عليها وبكتب الله التى أنزلها .

ولهذا كان عامة رؤسائهم من القسيسين والرهبان وما يدخل فيهم من البطارقة والمطارنة والأساقفة إذا صار الرجل منهم فاضلا مميزاً فانه ينحل عن دينه ويصير منافقاً لملوك أهل دينه وعامتهم رضى بالرياسة عليهم وبما يناله من الحظوظ كالذى كان لبيت المقدس الذى يقال له ابن البورى والذى كان بدمشق الذى يقال له ابن القف ، والذى بقسطنطينية وهو البابا عندهم ، وخلق كثير من كبار البابوات

والمطارنة والأساقفة لما خاطبهم قوم من الفضلاء أقروا لهم بأنهم ليسوا على عقيدة النصارى وإنما بقاؤهم على ماهم عليه لأجل العاده والرياسة ، كبقاء الملوك والأغنياء على ملكهم وغناهم ، ولهذا تجد غالب فضلائهم إنما همة أحدهم نوع من العلم الرياضى كالمنطق والهيئة والحساب والنجوم ، أو الطبيعى كالطب ومعرفة الأركان ، أو التكلم فى الإلهى على طريقة الصابئة الفلاسفة الذين بعث إليهم ابراهيم الخليل عليه السلام ، قد نبذوا دين المسيح والرسل الذين قبله وبعده وراء ظهورهم وحفظوا رسوم الدين لأجل الملوك والعامة .

وأما الرهبان فأحدثوا من أنواع المكر والحيل بالعامة مايظهر لكل عاقل ، حتى صنف الفضلاء فى حيل الرهبان كتبا مثل النار التى كانت تصنع بقمامة ، يدهنون خيطاً دقيقا بسندروس ويلقون النار عليه بسرعة فتنزل فيعتقد الجهال أنها نزلت من السماء ، ويأخذونها إلى البحر وهى صنعة ذلك الراهب يراه الناس عيانا وقد اعترف هو وغيره أنهم يصنعونها .

وقد اتفق أهل الحق من جميع الطوائف على أنه لاتجوز

عبادة الله تعالى بشىء ليس له حقيقة . وقد يظن المنافقون أن ماينقل عن المسيح وغيره من المعجزات من جنس النار المصنوعة وكذلك حيلهم فى تعليق الصليب وفى بكاء التماثيل التى يصورونها على صورة المسيح وأمه وغيرهما ونحو ذلك كل ذلك يعلم كل عاقل أنه إفك مفترى ، وأن جميع أنبياء الله وصالحى عباده برآء من كل زور باطل وإفك كبرائهم من سحر سحرة فرعون .

ثم إن هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التى يعبدون الله بها فناقضوا الأولين من اليهود فيها ، مع أنهم يأمرون بالتمسك بالتوراة إلا مانسخه المسيح . قصر هؤلاء فى الأنبياء حتى قتلوهم ؛ وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدوهم وعبدوا تماثيلهم ، وقال أولئك إن الله لا يصلح له أن يغير ما أمر به فينسخه لافى وقت آخر ولا على لسان نبى آخر ، وقال هؤلاء بل الأحبار والقسيسون يغيرون ماشاءوا ويحرمون مارأوا ، ومن أذنب ذنباً وظفوا عليه مارأوا من العبادات وغفروا له . ومنهم من يزعم أنه ينفخ فى المرأة من روح القدس ، فيجعل البخور قرباناً . وقال أولئك : حرم علينا أشياء

كثيرة . وقال هؤلاء ما بين البقة والفيل حلال ، كل ماشئت ودع ماشئت . وقال أولئك : النجاسات مغلظة ، حتى إن الحائض لايقعد معها ولا يؤكل معها . وهؤلاء يقولون ما عليك شيء نجس ولا يأمرون بختان ولا غسل من جنابة ولا إزالة نجاسة ، مع أن المسيح والحواريين كانوا على شريعة التوراة .

ثم إن الصلاة إلى المشرق لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون ، وإنما ابتدعها قسطنطين أو غيره . وكذلك الصليب إنما ابتدعه قسطنطين برأيه وبمنام زعم أنه رآه . وأما المسيح والحواريون فلم يأمروا بشيء من ذلك .

والدين الذى يتقرب العباد به إلى الله لابد أن يكون الله أمر به وشرعه على ألسنة رسله وأنبيائه ، وإلا فالبدع كلها ضلالة ، وما عبدت الأوثان إلا بالبدع ، وكذلك إدخال الألحان فى الصلوات لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون

وبالجملة : فعامة أنواع العبادات والأعياد التى هم عليها لم ينزل بها الله كتاباً ولا بعث بها رسولا ، لكن فيهم رأفة ورحمة ، وهذا من دين الله بخلاف الأولين فإن فيهم قسوة

ومقتاً وهذا مما حرمه الله تعالى ، لـكن الأولون لهم تمييز وعقل مع العناد والـكبر ، والآخرون فيهم ضلال عن الحق وجهل بطريق الله .

ثم إن هاتين الأمتين تفرقتا أحزاباً كثيرة فى أصل دينهم واعتقادهم فى معبودهم ورسولهم : هذا يقول إن جوهر اللاهوت والناسوت صارا جوهراً واحداً وطبيعة واحدة وأقنوماً واحداً وهم اليعقوبية ؛ وهذا يقول بل هما جوهران وطبيعتان وأقنومان وهم النسطورية ، وهذا يقول بالاتحاد من وجه دون وجه وهم الملـكانية .

وقد آمن جماعات من علماء أهل الـكتاب قديماً وحديثاً ، وهاجروا إلى الله ورسوله ، وصنفوا فى كتب الله من دلالات نبوة النبى خاتم المرسلين ، وما فى التوراة والزبور والإنجيل من مواضع لم يدبروها ، وكذلك الحواريون . فلما اختلف الأحزاب من بينهم هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فبعث النبى الذى بشر به المسيح ومن قبله من الأنبياء ، داعياً إلى ملة إبراهيم ودين المرسلين قبله وبعده ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ،

وإخلاص الدين كله لله ، وطهر الأرض من عبادة الأوثان ، ونزه الدين عن الشرك دقه وجله ، بعد ما كانت الأصنام تعبد فى أرض الشام وغيرها فى دولة بنى إسرائيل ودولة الذين قالوا إنا نصارى ، وأمر بالإيمان بجميع كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وبجميع أنبياء الله من آدم إلى محمد .

قال الله تعالى : (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون)

وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل فقال تعالى : (قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ

بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) . وقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) وقال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) .

وأمره أن تكون صلاته وحجه إلى بيت الله الحرام الذى **بناه** خليله إبراهيم أبو الأنبياء وإمام الحنفاء ، وجعل أمته وسطاً ، فلم يغلوا فى الأنبياء كغلو من عدلهم بالله ، وجعل فيهم شيئاً من الإلهية وعبدهم وجعلهم شفعاء ، ولم **يجفوا** جفاء من آذاهم واستخف بحرماتهم وأعرض عن طاعتهم ، بل عزروا الأنبياء أى عظموهم ونصروهم وآمنوا بما جاءوا به وأطاعوهم واتبعوهم وائتموا بهم وأحبوهم وأجلوهم ، ولم يعبدوا إلا الله ، فلم يتكلوا إلا عليه ، ولم يستعينوا إلا به ، مخلصين له الدين حنفاء .

وكذلك فى الشرائع قالوا ماأمرنا الله به أطعناه وما نهانا عنه انتهينا ، وإذا نهانا عما كان أحله كما نهى بنى إسرائيل عما كان أباحه ليعقوب ، أو أباح لنا ما كان حراماً كما أباح المسيح بعض الذى حرم الله على بنى إسرائيل سمعنا وأطعنا

وأما غير رسل الله وأنبيائه فليس لهم أن يبدلوا دين الله ، ولا يبتدعوا فى الدين مالم يأذن به الله . والرسل إنما قالوا تبليغاً عن الله ، فانه سبحانه له الخلق والأمر ، فكما لايخلق غيره لايأمر غيره (إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وتوسطت هذه الأمة فى الطهارة والنجاسة ، وفى الحلال والحرام ، وفى الأخلاق ، ولم يجردوا الشدة كما فعله الأولون ، ولم يجردوا الرأفة كما فعله الآخرون . بل عاملوا أعداء الله بالشدة ، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة ؛ وقالوا فى المسيح ماقاله سبحانه وتعالى وماقاله المسيح والحواريون ، لاماابتدعه الغالون والجافون .

وقد أخبر الحواريون عن خاتم المرسلين أن يبعث من أرض اليمن وأنه يبعث بقضيب الأدب وهو السيف . وأخبر

المسيح أنه يجيء بالبينات والتأويل ، وأن المسيح جاء بالأمثال وهذا باب يطول شرحه .

وإنما نبه الداعى لعظيم ماته وأهله ، لما بلغنى ما عنده من الديانة والفضل ومحبة العلم وطلب المذاكرة ، ورأيت الشيخ أباالعباس المقدسى شاكراً من الملك من رفقه ولطفه وإقباله عليه وشاكراً من القسيسين ونحوهم .

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة ، فان أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه ، وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين ، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ، فانه لابد للعبد من لقاء الله ، ولا بد أن الله يحاسب عبده كما قال تعالى : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) .

وأما الدنيا فأمرها حقير ، وكبيرها صغير ، وغاية أمرها يعود إلى الرياسة والمال، وغاية ذى الرياسة أن يكون كفرعون الذى أغرقه الله فى اليم انتقاماً منه ، وغاية ذى المال أن يكون كقارون الذى خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة لما آذى نبى الله موسى .

وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين كلها تامر بعبادة الله والتجرد للدار الآخرة والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا . ولما كان أمر الدنيا خسيساً رأيت أن أعظم مايهدى لعظيم قومه المفاتحة فى العلم والدين بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله ، والكلام فى الفروع مبنى على الأصول ، وأنتم تعلمون أن دين الله لا يكون بهوى النفس ولا بعادات الآباء وأهل المدنية ، وإنما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل وفيما اتفق الناس عليه وما اختلفوا فيه ، ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى بالاعتقاد الصحيح والعمل الصالح وإن كان لا يمكن الإنسان أن يظهر كل مافى نفسه لكل أحد فينتفع هو بذلك القدر .

وإن رأيت من الملك رغبة فى العلم والخير كاتبته وجاوبته عن مسائل يسألها ، وقد كان خطر لى أن أجىء إلى قبرص لمصالح فى الدين والدنيا ، لكن إذا رأيت من الملك مافيه رضى الله ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله ، فإن الملك وقومه يعلمون أن الله قد أظهر من معجزات رسله عامة ، ومحمد خاصة ماأيد به دينه ، وأذل الكفار والمنافقين

ولما قدم مقدم المغول غازان وأتباعه إلى دمشق ؛ وكان قد انتسب إلى الاسلام ، لكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه ، حيث لم يلتزموا دين الله ، وقد اجتمعت به وبأمرائه وجرى لى معهم فصول يطول شرحها لابد أن تكون قد بلغت الملك ، فأذله الله وجنوده لنا حتى بقينا نضربهم بأيدينا ونصرخ فيهم بأصواتنا ، وكان معهم صاحب سيس مثل أصغر غلام يكون ، حتى كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ عليه ويشتمه وهو لا يجترىء أن يجاوبه حتى إن وزراء غازان ذكروا ماينم عليه من فساد النية له ، وكنت حاضراً لما جاءت رسلكم إلى ناحية الساحل ، وأخبرنى التتار بالأمر الذى أراد صاحب سيس أن يدخل بينكم وبينه فيه حيث مناكم بالغرور ، وكان التتار من أعظم الناس شتيمة لصاحب سيس وإهانة له ، ومع هذا فانا كنا نعامل أهل ملتكم بالإحسان اليهم والذب عنهم

وقد عرف النصارى كلهم أنى لما خاطبت التتار فى إطلاق الأسرى وأطلقهم غازان وقطلوشاه وخاطبت مولاى فيهم فسمح باطلاق المسلمين قال لى لكن معنا نصارى

أخذناهم من القدس فهؤلاء لا يطلقون ، فقلت له بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فانا نفتكهم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة وأطلقنا من النصارى من شاء الله فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

وكذلك السبي الذى بأيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم ، كما أوصانا خاتم المرسلين حيث قال فى آخر حياته «الصلاة وما ملكت أيمانكم» قال الله تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا) .

ومع خضوع التتار لهذه الملة وانتسابهم إلى هذه الملة فلم نخادعهم ولم ننافقهم ، بل بينا لهم ماهم عليه من الفساد والخروج عن الإسلام الموجب لجهادهم ، وأن جنود الله المؤيدة وعساكره المنصورة المستقرة بالديار الشامية والمصرية مازالت منصورة على من ناوأها ، مظفرة على من عاداها . وفى هذه المدة لما شاع عند العامة أن التتار مسلمون أمسك العسكر عن قتالهم فقتل منهم بضعة عشر ألفاً ولم يقتل من المسلمين مائتان ، فلما انصرف العسكر إلى مصر وبلغه ماعليه

هذه الطائفة الملعونة من الفساد وعدم الدين خرجت جنود الله وللأرض منها وئيد ، قد ملأت السهل والجبل فى كثرة وقوة وعدة وإيمان وصدق قد بهرت العقول والألباب محفوفة بملائكة الله التى مازال يمد بها الأمة الحنيفية المخلصة لبارئها ، فانهزم العدو بين أيديها ولم يقف لمقابلتها ثم أقبل العدو ثانياً فأرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيل ، وانصرف خاسئاً وهو حسير ، وصدق الله وعده ونصر عبده . وهو الآن فى البلاء الشديد والتعكيس العظيم والبلاء الذى أحاط به . والإسلام فى عز متزايد ، وخير مترافد ، فان النبى ﷺ قد قال « إن الله يبعث لهذه الأمة فى رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها »

وهذا الدين فى إقبال وتجديد ، وأنا ناصح للملك وأصحابه والله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة والإنجيل والفرقان . ويعلم الملك أن وفد نجران كانوا نصارى كلهم فيهم الأسقف وغيره لما قدموا على النبى ﷺ ودعاهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام خاطبوه فى أمر المسيح وناظروه فلما قامت عليهم الحجة جعلوا يراوغون ، فأمر الله نبيه أن

يدعوهم إلى المباهلة كما قال (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)

فلما ذكر النبي ﷺ ذلك استشوروا بينهم، فقالوا تعلمون أنه نبي وأنه ماباهل أحد نبياً فأفلح، فأدوا إليه الجزية، ودخلوا فى الذمة واستعفوا من المباهلة.

كذلك بعث النبي ﷺ كتاباً إلى قيصر الذى كان ملك النصارى بالشام والبحر إلى قسطنطينية وغيرها، وكان ملكا فاضلا، فلما قرأ كتابه وسأل عن علامته عرف أنه النبي الذى بشر به المسيح وهو الذى كان وعد الله به إبراهيم فى ابنه إسماعيل، وجعل يدعو قومه النصارى إلى متابعته وأكرم كتابه وقبله ووضعه على عينيه، وقال وددت أنى أخلص إليه حتى أغسل عن قدميه، ولولا ماأنا فيه من الملك لذهبت إليه.

وأما النجاشي ملك الحبشة النصرانى فانه لما بلغه خبر النبي ﷺ من أصحابه الذين هاجروا إليه آمن به وصدقه، وبعث إليه ابنه وأصحابه مهاجرين وصلى النبي ﷺ عليه

لما مات ، ولما سمع سورة (كهيعص) بكى ، ولما أخبروه عما يقولون فى المسيح قال : والله مايزيد عيسى على هذا مثل هذا العود ، وقال : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وكانت سيرة النبى صلى الله عليه وسلم أن من آمن بالله وكتبه ورسله من النصارى صار من أمته ، له مالهم وعليه ماعليهم ، وكان له أجران : أجر على إيمانه بالمسيح ، وأجر على إيمانه بمحمد . ومن لم يؤمن به من الأمم فإن الله أمر بقتاله كما قال فى كتابه (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

فمن كان لا يؤمن بالله بل يسب الله ويقول إنه ثالث ثلاثة وأنه صلب ، ولا يؤمن برسله ، بل يزعم أن الله حمل وولد ، وكان يأكل ويشرب ويتغوط وينام هو الله وابن الله وأن الله أو ابنه حل فيه وتدرعه ، ويجحد ماجاء به محمد خاتم المرسلين ، ويحرف نصوص التوراة والإنجيل ، فإن فى الأناجيل الأربعة من التناقض والاختلاف بينما أمر بما

أمر الله به وأوجبه مافيها ، ولا يدين الحق ، ودين الحق هو الإقرار بما أمر الله به وأوجبه من عبادته وطاعته ، ولا يحرم ما حرم الله ورسوله من الدم والميتة ولحم الخنزير الذى مازال حراماً من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أباحه نبى قط بل علماء النصارى يعلمون أنه محرم وما يمنع بعضهم من إظهار ذلك إلا الرغبة والرهبة ، وبعضهم يمنعه العناد والعادة ونحو ذلك ، ولا يؤمنون باليوم الآخر لأن عامتهم وإن كانوا يقرون بقيامة الأبدان لكنهم لا يقرون بما أخبره الله به من الأكل والشرب واللباس والنكاح والنعيم والعذاب فى الجنة والنار ، بل غاية ما يقرون به من النعيم السماع والشم ومنهم متفلسفة ينكرون معاد الأجساد ، وأكثر علمائهم زنادقة وهم يضمرون ذلك ويسخرون بعوامهم لا سيما بالنساء والمترهبين منهم لضعف العقول . فمن هذا حاله فقد أمر الله رسوله بجهاده حتى يدخل فى دين الله أو يؤدى الجزية وهذا دين محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم المسيح صلوات الله عليه لم يأمر بجهاد ، ولا سيما بجهاد الأمة الحنيفية ولا الحواريون بعده . فيا أيها الملك

كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحريم وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسله.

ثم أما يعلم الملك أن بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان مالا يحصى عددهم إلا الله ، ومعاملتنا فيهم معروفة فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التى لا يرضى بها ذو مروءة ولا ذو دين . لست أقول عن الملك وأهل بيته ولا إخوته فإن أبا العباس شاكر للملك ولأهل بيته كثيراً معترف بما فعلوه معه من الخير وإنما أقول عن عموم الرعية أليس الأسرى فى رعية الملك . أليست عهود المسيح وسائر الأنبياء توصى بالبر والإحسان فأين ذلك ؟

ثم إن كثيراً منهم إنما أخذوا غدراً والغدر حرام فى جميع الملل والشرائع والسياسات . فكيف تستحلون أن تستولوا على من أخذ غدراً . أفتأمنون مع هذا أن يقابلكم المسلمون ببعض هذا وتكونون مغدورين والله ناصرهم ومعينهم . لا سيما فى هذه الأوقات والأمة قد امتدت للجهاد ، واستعدت للجلاد . ورغب الصالحون وأولياء الرحمن فى

طاعتـه . وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد وقد ظهر بعض أثرهم وهم فى ازدياد .

ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية الذين يغتالون الملوك فى فرشها وعلى أفراسها من قد بلغ الملك خبرهم قديماً وحديثاً ، وفيهم الصالحون الذين لا يرد الله دعواتهم ، ولا يخيب طلباتهم ، الذين يغضب الرب لغضبهم ويرضى لرضاهم وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم إلى المسلمين لما غضب المسلمون عليهم أحاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف ، فكيف يحسن أيها الملك بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة التى لا يرضاها عاقل لا مسلم ولا معاهد .

هذا وأنت تعلم أن المسلمين لا ذنب لهم أصلا ، بل هم المحمودون على ما فعلوه ، فإن الذى أطبقت العقلاء على الإقرار بفضله هو دينهم ، حتى الفلاسفة أجمعوا على أنه لم يطرق العالم دين أفضل من هذا الدين ، فقد قامت البراهين على وجوب متابعته .

ثم هذه البلاد ما زالت بأيديهم الساحل ، بل وقبرص

أيضاً ما أخذت منهم إلا من أقل من ثلاثمائة سنة ، وقد وعدهم النبي ﷺ أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ، فما يؤمن الملك أن هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد كما ينتقم لغيرهم ، وما يؤمنه أن تأخذ المسلمين حمية إسلامهم فينالوا فيها ما نالوا من غيرها ، ونحن إذا رأينا من الملك وأصحابه ما يصلح عاملناهم بالحسنى ، وإلا فمن بغى عليه لينصرنه الله .

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين ، وأنا ما غرضى الساعة إلا مخاطبتكم بالتى هى أحسن ، والمعاونة على النظر فى العلم واتباع الحق وفعل ما يجب ، فان كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان ، ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلدين الذين لا يسمعون ولا يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

وأصل ذلك أن تستعين بالله وتسأله الهداية وتقول اللهم أرنى الحق حقاً وأعنى على اتباعه ، وأرنى الباطل باطلا وأعنى على اجتنابه ، ولا تجعله مستبهما على فأتبع الهوى ،

وقل اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

والكتاب لا يحتمل البسط أكثر من هذا ، لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه فى الدنيا والآخرة وهما شيئان: أحدهما له خاصة ، وهو معرفته بالعلم والدين ، وانكشاف الحق وزوال الشبهة وعبادة الله كما أمر ، فهذا خير له من ملك الدنيا بحذافيرها ، وهو الذى بعث به المسيح وعلمه الحواريين . الثانى له وللمسلمين ، وهو مساعدته للأسرى الذين فى بلاده ، وإحسانه إليهم ، وأمر رعيته بالإحسان إليهم والمعاونة لنا على خلاصهم ، فإن فى الإساءة إليهم دركا على الملك فى دينه ودين الله تعالى وعند المسلمين ، وكان المسيح أعظم الناس توصية بذلك .

ومن العجب كل العجب أن يأسر النصارى قوماً غدراً أو غير غدر ولم يقاتلوهم ، والمسيح يقول « من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومن أخذ رداءك أعطه

قميصك » وكلما كثرت الأسرى عندكم كان أعظم لغضب
الله وغضب عباده المسلمين فكيف يمكن السكوت
على أسرى المسلمين فى قبرص ، سيما وعامة هؤلاء الأسرى
قوم فقراء وضعفاء ليس لهم من يسعى فيهم . وهذا أبو العباس
مع أنه من عباد المسلمين وله عبادة وفقر وفيه مشيخة
ومع هذا فما كاد يحصل له فداؤه إلا بالشدة . ودين
الإسلام يأمرنا أن نعين الفقير والضعيف فالملك أحق أن
يساعد على ذلك من وجوه كثيرة ، لا سيما والمسيح يوصى
بذلك فى الإنجيل ويأمر بالرحمة العامة والخير الشامل
كالشمس والمطر . والملك وأصحابه إذا عاونونا على تخليص
الأسرى والإحسان إليهم كان الحظ الأوفر لهم فى ذلك فى
الدنيا والآخرة . أما فى الآخرة فإن الله يثيب على ذلك
ويأجر عليه وهذا مما لا ريب فيه عند العلماء المسيحيين
الذين لا يتبعون الهوى بل كل من اتقى الله وأنصف علم
أنهم أسروا بغير حق ولا سيما من أخذ غدراً والله تعالى لم
يأمر ولا المسيح أمر ولا أحد من الحواريين ولا من اتبع
المسيح على دينه لا بأسر أهل ملة إبراهيم ولا بقتلهم

وكيف وعامة النصارى يقرون بأن محمـداً رسول الأميين فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين اتبعوا رسولهم .

« فإن قال قائل » هم قاتلونا أول مرة «قيل» هذا باطل فيمن غدرتم به ، ومن بدأتموه بالقتال . وأما من بدأ كم منهم فهو معذور لأن الله تعالى أمره بذلك ورسوله ، بل المسيح والحواريون أخذ عليهم المواثيق بذلك ولا يستوى من عمل بطاعة الله ورسله ودعا إلى عبادته ودينه وأقر بجميع الكتب والرسل ، وقاتل لتكون كلمة الله هى العليا وليكون الدين كله لله ، ومن قاتل فى هوى نفسه وطاعة شيطانه على خلاف الله ورسله .

وما زال فى النصارى من الملوك والقسيسين والرهبان والعامة من له مزية على غيره فى المعرفة والدين ، فيعرف بعض الحق وينقاد لكثير منه ، ويعرف من قدر الإسلام وأهله ما يجهله غيره فيعاملهم معاملة تكون نافعة له فى الدنيا والآخرة . ثم فى فكاك الأسير وثواب العتق من كلام الأنبياء والصديقين ما هو معروف لمن طلبه ، فهما عمل الملك معهم وجد ثمرته .

وأما فى الدنيا فإن المسلمين أقدر على المكافأة فى الخير والشر من كل أحد ، ومن حاربوه فالويل كل الويل له . والملك لا بد أن يكون سمع السير وبلغه أنه ما زال فى المسلمين النفر القليل منهم من يغلب أضعافاً مضاعفة من النصارى وغيرهم ، فكيف إذا كانوا أضعافهم ، وقد بلغه الملاحم المشهورة فى قديم الدهر وحديثه مثل أربعين ألفاً يغلبون من النصارى أكثر من أربعمائة ألف أكثرهم فارس ، وما زال المرابطون بالثغور مع قلتهم واشتغال ملوك الإسلام عنهم يدخلون بلاد النصارى فكيف وقد من الله تعالى على المسلمين باجتماع كلمتهم وكثرة جيوشهم ، وبأس مقدميهم وعلو هممهم ، ورغبتهم فيما يقرب إلى الله تعالى ، واعتقادهم أن الجهاد أفضل الأعمال المطوعة وتصديقهم بما وعدهم نبيهم حيث قال «يعطى الشهيد ست خصال : يغفر له بأول قطرة من دمه ، ويرى مقعده فى الجنة ، ويكسى حلة الإيمان ، ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين ، ويوقى فتنة القبر ، ويؤمن من الفزع الأكبر يوم القيامة» .

ثم إن فى بلادهم من النصارى أضعاف ما عندكم من

المسلمين ، فإن فيهم من رءوس النصارى من ليس فى البحر مثلهم إلا قليل . وأما أسراء المسلمين فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون ولا من ينتفعون به ، وإنما نسعى فى تخليصهم لأجل الله تعالى ، رحمة لهم وتقرباً إليه يوم يجزى الله المصدقين ولا يضيع أجر المحسنين .

وأبو العباس حامل هذا الكتاب قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا ، واستعطف قلوبنا إليه ، فلذلك كاتبت الملك لما بلغتنى رغبته فى الخير وميله إلى العلم والدين ، وأنا من نواب المسيح وسائر الأنبياء فى مناصحة الملك وأصحابه ، وطلب الخير لهم ، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس يريدون للخلق خير الدنيا والآخرة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعونهم إلى الله ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم ، وإن كان الملك قد بلغه بعض الأخبار التى فيها طعن على بعضهم أو طعن على دينهم، فإما أن يكون الخبر كاذباً أو ما فهم التأويل وكيف صورة الحال . وإن كان صادقاً عن بعضهم بنوع من المعاصى والفواحش والظلم، فهذا لا بد منه فى كل أمة ، بل الذى يوجد فى المسلمين من الشر أقل مما

فى غيرهم بكثير، والذى فيهم من الخير لا يوجد مثله فى غيرهم.
والملك وكل عاقل يعرف أن أكثر النصارى خارجون عن وصايا المسيح والحواريين ورسائل بولص وغيره من القديسين، وإن كان أكثر مامعهم من النصرانية شرب الخمر وأكل الخنزير وتعظيم الصليب، ونواميس مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان، وأن بعضهم يستحل بعض ما حرمته الشريعة النصرانية. هذا فيما يقرون به.
وأما مخالفتهم لما لا يقرون به فكلهم داخل فى ذلك بل قد ثبت عندنا عن الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسيح عيسى بن مريم ينزل عندنا بالمنارة البيضاء فى دمشق واضعاً يده على منكبى ملكين فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، ويقتل مسيح الضلالة الأعور الدجال الذى يتبعه اليهود ويسلط المسلمون على اليهود حتى يقول الشجر والحجر يامسلم هذا يهودى ورائى فاقتله، وينتقم الله للمسيح بن مريم مسيح الهدى من اليهود ما آذوه وكذبوه لما بعث إليهم.
أما ما عندنا فى أمر النصارى وما يفعل الله بهم من

إدالة المسلمين عليهم وتسليطه عليهم ، فهذا مما لا أخبر به الملك لئلا يضيق صدره ، ولكن الذى أنصحه به أن كل من أسلف إلى المسلمين خيراً ومال إليهم كانت عاقبته معهم حسنة بحسب ما فعله من الخير فإن الله يقول (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)

والذى أختم به الكتاب الوصية بالشيخ أبى العباس وبغيره من الأسرى ، والمساعدة لهم ، والرفق بمن عندك من أهل القرآن والامتناع من تغيير دين واحد منهم وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله ، ونحن نجزى الملك على ذلك بأضعاف ما فى نفسه . والله يعلم أنى قاصد للملك الخير لأن الله تعالى أمرنا بذلك ، وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد ونعطف على خلق الله ، وندعوهم إلى الله وإلى دينه وندفع عنهم شياطين الإنس والجن .

والله المسئول أن يعين الملك على مصلحته التى هى عند الله المصلحة، وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله ويختم له بخاتمة خير . والحمد لله رب العالمين . وصلواته على أنبيائه المرسلين ولا سيما محمد خاتم النبيين والمرسلين والسلام عليهم أجمعين .


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت